محمود شلتوت

الإسلام والعلاقات الدولية

(فى السلم والحرب)

مكتب شيخ الجامع الأزهر
للشئون العامة

الرسالة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد .

فأن للمسلمين فى أنحاء المعمورة صلة وارتباطاً بالأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، صلة روحية وارتباطاً ثقافيا وتوجيهياً لأن صوته فى كل سمع وقلمه وعلمه فى كل قلب وفتاواه تناولت كل مشكلة .

الأمر الذى جعل الناس يلحون فى أن يعاد طبع الكتب التى قامت بطبعها بعض الهيئات والوزارات ،

ومكتب شيخ الجامع الأزهر للشئون العامة لن يألو جهداً فى تلبية رغبات المسلمين لتصل إليهم كتب فضيلته قصداً للتثقيف الدينى والاجتماعى ونشراً للوعى السامى وإظهاراً لروح الدين .

وبين أيدى طلاب العلم وراغبى المعرفة بداية السلسلة العلمية العميقة لتكون فى رسالة المكتبة الدينية العربية والله المستعان وهو ولى التوفيق .

مكتب شيخ الجامع الأزهر
للشئون العامة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى بعثه الله رحمة للخلق أجمعين ، وأنزل عليه القرآن تبيانا لكل شيء فرسم للناس حدود العقيدة الصحيحة ، ودوائر الأخلاق الفاضلة وأرشدهم إلى ما ينظمون به علاقة بعضهم ببعض على وجه يدفع الطغيان ، ويحفظ الحقوق .

وبعد فهذا بحث عن القتال فى نظر القرآن ، ألقيته فى محطة الإذاعة اللاسلكية المصرية من سنين فى سلسلة من المحاضرات ، وأردت نشره على الناس مرة أخرى فى رسالة مطبوعة ليتمكنوا من قراءته فينتفع به من يحتاج إليه ، ويبدى رأيه فيه من يرى ذلك .

وقد ضمنت مقدمته بيان الطريقة المثلى فى نظرنا لتفسير القرآن الكريم ، وألمعت إلى السبب الذى حملنى على اختيار هذا الموضوع من بين موضوعات القرآن .

أما البحث فقد تناول :

طبيعة الدعوة الإسلامية — القرآن ومشروعية القتال — القرآن وتنظيم القتال وأحكامه المبدئية والنهائية .

ثم ذيلت فصول هذا البحث بخاتمة بينت فيها أن القتال العملى الذى قام به الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزواته ، وقام به خليفتاه من بعده فى حروبهما كان تطبيقا صحيحا لما قرره القرآن فى تشريع القتال وتنظيمه وأحكامه لم يحد عنه قيد أنملة .

وهذا ما ستقرأ تفصيله فى تلك الرسالة وأرجو أن يكون الله قد ألهمنى فيما كتبت الرشد والسداد .

« وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

محمود شلتوت

شوال سنة ١٣٧٠ هـ

يوليو سنة ١٩٥١ م

الطريقة المثلى فى تفسير القرآن

لتفسير القرآن الكريم طريقتان :

إحداهما : أن يسير المفسر بتفسيره مع آيات الذكر الحكيم وسوره على الترتيب القرآنى المعروف ، فيفسر المفردات ، ويربط بين الآيات . ويبين المعانى التى تدل عليها .

وهذه هى الطريقة التى عهدها الناس منذ كان التفسير وكان المفسرون ، ومن مظاهرها اختلاف طرق التفسير باختلاف روح المفسرين : فمن غلبت عليه روح العلوم البلاغية عنى فى تفسيره بالتطبيق على قواعدها ، ومن غلبت عليه روح النحو والصرف ، عنى فى تفسيره بإعراب الكلمات وتصريفها ، ومن غلبت عليه الروح التاريخية ، عنى بالقصص والأخبار وربما أسرف فأدخل فى التفسير كثيرا من الإسرائيليات دون تحقيق ولا تمحيص ، ومن غلبت عليه الروح الفلسفية حبب إليه البحث فى الكائنات ، وعنى فى تفسيره بهذا الجانب ، ومن غلبت عليه روح الجدل الكلامى أو الفقهى تأثر تفسيره بما غلب عليه وهكذا . . وبهذه الأساليب المختلفة المتأثرة بهذه الاتجاهات المتعددة ، صعب على الناظر فى هذه التفاسير أن يجد هداية القرآن على الوجه الذى يطمئن إليه قلبه ، ويشق له طريق الحياة ويلهمه الرشد والسداد .

ولقد نجم عن هذه الطريقة أن عدل ببعض الآيات عن معانيها وأغراضها التى سيقت لها ، أو حكم فيها معنى لاتحتمله قضى عليها بالنسخ ، وكثيراً ما تفسر الآية على مقتضى القواعد الأصولية التى استخلصها أرباب المذاهب من الفروع الفقهية ، واتخذوها أصولا تحاكموا إليها فى فهم القرآن والسنة واستنباط الأحكام ، ولم يقف ذلك عند التشريع وآيات الأحكام : بل تعدى إلى العقائد وآراء الفرق ، فتراهم يقولون : هذه الآية لاتتفق ومذهب أهل السنة فهى مؤولة بكذا وكذا ، كما يقولون هذه الآية لا تتفق ومذهب الحنفية وتأويلها كذا وكذا ، وكما يقولون : هذه الآية أو تلك الآيات - وربما نيفت على السبعين - لاتتفق ومشروعية القتال فهى منسوخة . . !

وهكذا صار القرآن فرعا بعد أن كان أصلا . وتابعا بعد أن كان متبوعا ، وموزونا بغيره بعد أن كان ميزانا .

يقول الله تعالى : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول هو الرد إلى سنته الصحيحة ، ولكن هؤلاء عكسوا القضية ، وقلبوا التشريع ، وردوا كتاب الله وسنة رسوله إلى ما لهم من آراء ، وما لمقلديهم من مذاهب .

وقد نقل الفخر الرازى وهو بصدد تفسير قوله تعالى فى سورة التوبة : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » عن شيخه خاتم المحققين والمجتهدين : (قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله فى بعض مسائل ، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات ، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها ، وبقوا ينظرون إلى كالمتعجب ، يعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها !)

وكما نقل الرازى عن شيخه هذا ، نقل غيره عن كثير من العلماء كالغزالى والعز بن عبد السلام ، مثله وأكثر منه .

* * *

كانت هذه الأساليب الملتوية فى تفسير القرآن ، وهذه النكسة التى أصيبت بها علاقة القرآن بالفقه والعقائد ، سيما فى حدوث فوضى فكرية فيما يتصل بالقرآن ومعانى القرآن ، وكان لهذه الفوضى أثرها فى إعراض الناس عن القرآن ، وعن الاستماع لمفسرى القرآن .

أما الطريقة الثانية فهى : أن يعمد المفسر أولا إلى جميع الآيات التى وردت فى موضوع واحد ثم يضعها أمامه كمواد يحللها ويفقه معانيها ، ويعرف النسبة بين بعضها وبعض ، فيتجلى له الحكم ويتبين المرمى الذى ترمى إليه الآيات الواردة فى الموضوع ، وبذلك

يضع كل شىء موضعه ، ولا يكره آية على معنى لا تريده كما لا يغفل عن مزية من مزايا الصوغ الإلهى الحكيم .

وهذه الطريقة فى نظرنا هى الطريقة المثلى ، وخصوصا فى التفسير الذى يراد إذاعته على الناس بقصد إرشادهم إلى ما تضمنه القرآن من أنواع الهداية ، وإلى أن موضوعات القرآن ليست نظريات بحتة يشتغل بها الناس من غير أن يكون لها مثل واقعية فيما يحدث للأفراد والجماعات من أقضية ، ويتصل بحياتهم من شئون .

وهى تمكن المفسر من علاج موضوعات عملية كثيرة ، كل موضوع منها قائم بنفسه لا يتصل بسواه ، ولا يختلط بغيره فيعرف الناس موضوعات القرآن بعناوينها الواضحة ، ويعرفون مقدار صلة القرآن بحياتهم الواقعية : القرآن وأصول التشريع ، القرآن والعلم ، القرآن والأسرة ، القرآن وأدب الاجتماع . القرآن والسياحة ، القرآن والاقتصاد ، القرآن والتضحية ، القرآن والبر ، وهكذا .. إلى آخر ما يمكن عرضه من موضوعات القرآن التى تعتبر بحق عمدا قوية فى بناء الأمة ونهضتها : وبهذا يطمئن الناس بطريقة عملية واضحة إلى أن القرآن ليس بعيدا عن حياتهم ، ولا عن نواحى تفكيرهم ، ولا عن مشكلاتهم التى تعرض لهم فى كل حين ، يطمئنون إلى أن القرآن ليس كتابا روحيا فقط مهمته أن يشرح طرق القربى إلى الله من غير أن يعنى بشىء من وسائل الحياة .

ولقد سرت هذه الفكرة الخبيثة الباطلة فى نفوس كثير من الناس من حيث لا يشعرون ، ليس عند سواد الناس وعامتهم فقط ، ولكن عند كثير ممن يزعمون لأنفسهم أو يزعم الناس لهم تفقهاً فى الدين أو ثقافة ونبوغا فى الحياة ، ولقد أصبح القرآن بهذا فى نظر هؤلاء وهؤلاء كالأوراد يعكف عليها طوائف المريدين فى أوقات الخلوة ، واكتفوا منه بتلاوته ، والاستماع إليه ، والتعوذ به . والاستشفاء من الأمراض .

إنهم بهذا ظلموا القرآن . وظلموا أنفسهم وعقولهم . وظلموا الحياة الطيبة . وحرموها ينبوعا لا ينتهى فيضه فى العلم . والحكمة . والتشريع . والسياسة . والتربية . والتهذيب . وكل ما تعالج به شئون الحياة : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً »[1] .

وإذا كانت هذه الطريقة التى رسمناها تجود على الناس بتلك الثمرات الطيبة ، وتقيهم سوء الظن بكتاب الله وتشريعه ، فإنها تضع المفسر أمام الموضوع الذى يريد أن يعالجه وجها لوجه ، وتلقيه فى البيئة الخاصة به من الآيات ، فيستعين ببعضها على تفسير بعض . وإن أقوم تفسير للقرآن هو ما استقاه المفسر من القرآن نفسه .

[١] عرضت لهذا الموضوع فى محاضرة ألقيتها فى جمعية الشبان المسلمين ونشرتها مجلة الرسالة فى العددين ٤٠٧ ، ٤٠٨ من السنة التاسعة .

وكثيراً ما يغيب عن الناظر فى القرآن السر فى آية معينة حتى إذا ما سمع زميلتها الواردة فى موضوعها علم ما غاب عنه، وانكشف أمامه ما كان خافيا عليه.

* * *

وقد رغبنا ورغب أهل البصيرة فى العلم، أن يعرض تفسير القرآن على هذه الطريقة الجديدة، فتعرف موضوعات القرآن، وتبحث بحثاً نقياً، بريئا من الشوائب التى من شأنها أن تستر الحق أو تشوه جماله، بعيداً عن الطريقة الملتوية، منزها عن الأقاصيص الدخيلة والخيالات التى لا يزكيها عقل ولا حقيقة.

وأرجو أن يجد الناس فى هذا النحو الجديد من التفسير ما تصبو إليه نفوسهم من تعرف هداية القرآن والوقوف على أسراره وحكمه، والانتفاع بمبادئه وتعاليمه، وقد عرضت منذ سنوات على هذا النحو موضوع: القرآن والمرأة، وأظن أن الذين قرءوه بإخلاص قابلوه بصدر رحب وقلب مطمئن.

وقد رأيت أن يكون أول موضوع أعرضه الآن على هذه الطريقة بعد «القرآن والمرأة» موضوع: «القرآن والقتال»؛ ذلك لأن للقتال فى هذا الوقت شأناً واقعياً ملأ الدنيا وشغل الناس، وله فى سائر الأوقات شأن نظرى يلوكه كثير من أرباب الأديان فى الطعن على الإسلام. فما أحوج الناس فى وقتهم هذا وفى سائر

الأوقات إلى معرفة أحكام القرآن فى القتال. وفى أسبابه التى تحمل عليه. وغايته التى بها تضع الحرب أوزارها. وتلقى عن كاهل الناس أثقالها، ما أحوجهم إلى معرفة ذلك ليعلموا مقدار حكمة القرآن فى القتال. وحرص الإسلام على السلام، وكراهته لإراقة الدماء وإزهاق الأرواح فى سبيل الأثرة بحطام ليس له بقاء، والطمع الذى أساسه الشر وحب الاغتيال، وليعلم هؤلاء الذين يروعون العالم من وقت لآخر بحروبهم الفاتكة مقدار انحرافهم العملى عن دينهم الذى يعتقدون أنه دين السلم والسلام دون غيره من الأديان، وهل يقبل فى نظر العقل أن الدين الذى يدعو إلى السلم، ويطلب إلى الناس تسخير ما وهب الله لهم فيما ينفع لا فيما يضر وفيما يعمر لا فيما يخرب، يرضى من معتنقيه أن يروعوا العالم هذا الترويع الذى يخلع القلوب، ويذيب الأفئدة، ويحول المدن العامرة إلى خراب، والمدنيات الراقية إلى فناء، والحضارات المزدهرة إلى دمار، بينما يقولون بألسنتهم: إن دينهم دين السلام، وإن غيره دين الحرب والنضال، قام بالسيف وأسس على الإكراه!؟

طبيعة الدعوة الإسلامية

لتكن أول لبنة نضعها أساساً لعرض هذا الموضوع ، معرفة طبيعة الدعوة الإسلامية وهل هى بحاجة إلى إكراه الناس عليها ؟

قد يدعى الإنسان إلى اعتناق مبدأ فيسارع إليه ويؤمن به ، عن اطمئنان ، وارتياح ، وقد يكلف اعتقاد مبدأ آخر فيشق عليه وينفر منه . هاتان ظاهرتان نراهما فى حياتنا ، ونعرفهما من أنفسنا فما سبب ذلك ؟ .

سببه واضح فكلما كانت الحقيقة التى يدعى إلى اعتناقها يسيرة سهلة لا تعقيد فيها ولا تكلف ، ولا تحمل فى ظاهرها ولا فى باطنها ما يصدم الفطرة البشرية كانت حقيقة واضحة تدعو لنفسها ولا تحتاج إلى ما يحمل الناس عليها ، وكلما كانت معقدة متناقضة ملتوية كانت مشكلة مظلمة . فى طبيعتها ما يذود الناس عنها ، ويصرف العقول عن النظر فيها ، ومثل هذه تحتاج فى اعتناق الناس لها إلى وسيلة تفرضها عليهم فرضا ، وتلجئهم إليها إلجاء . وإذا كان هذا شأنا ملموساً فى النفوس . فلننظر من أى نوع من هذين النوعين طبيعة الدعوة الإسلامية .

أرسل الله محمدا على فترة من الرسل : داعيا ومبشراً ونذيرا . وأوحى إليه كتابا جمع بين دفتيه أصول السعادة للأمة والفرد :

أمر بتحكيم العقل ، عظم من شأن البرهان ، حبب فى العلم والمعرفة ، فصل الأحكام ، شرع الحدود ، دعا إلى الرحمة ، رغب فى الخير ، حض على السلام ، رفع الحرج ، وتوخى اليسر ، أحكم أصول السياسة وقواعد الاجتماع ، حارب البغى والفساد ، حارب الركود العقلى ، نعى على الاستنامة إلى ما درج عليه الآباء ، صاح فى الناس أن لهم حياة أخرى أسمى من هذه الحياة ، فيها النعيم الدائم ، والخلود الأبدى ، وأن منتهى الإنسان من مبدئه ، وآخرته من دنياه .

على هذا النحو كانت دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان أولها وأساسها توحيد الخالق ، والتوجه إليه وحده بالعبادة والإيمان به منزها عن شوائب النقص والاحتياج والمماثلة لشىء من خلقه : « بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

وأرشد إلى أنه يريد بذلك تكريم الإنسان ورفعه عن أن يعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع . وأعلن أنه يقرر بتلك الدعوة سائر الأديان التى سبقته . وأنه لا يخالفها فى أصل جاءت به وأنه لا يفرق بين رسول ورسول . الكل يقرر التوحيد . والكل يدعو إلى عبادة الله ، والكل يأمر بالمعروف وينهى عن

المنكر ، والكل يدعو إلى الفضيلة وينفر من الرذيلة : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم (١) » ، « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون (٢) » « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون (٣) » « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه (٤) » إلى آخر الآيات التى حددت دعوة الإسلام ، وهى - كما ترى فى تلك الآيات - دعوة واضحة بينة . سهلة خالية من التعقيد . بعيدة عن الغموض والإبهام . لا يعجز عقل عن هضمها ولا يلتوى فكر عن طريقها . وهى دعوة الأديان السابقة . ودعوة الرسل الأولين . وهى نداء

---

(١) آية ١٣٦ – ١٣٧ البقرة . (٢) آية ٦٤ آل عمران .

(٣) آية ٤٦ العنكبوت . (٤) آية ١٣ الشورى .

الفطرة ، فليست غريبة على العقول ، ولا بعيدة عن الأفهام . « صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ! » : « فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم » .

هذه هى دعوة الإسلام . فهل مثل هذه الدعوة يحتاج فى إيمان الناس به إلى إكراه ؟ إنه لمن الإساءة إليها ، ومن الصد عنها ، ومن وضع العراقيل فى سبيلها ، أن يجعل الإكراه طريقا من طرق الإيمان بها . إن الإنسان إذا شعر أنه مكره على شيء ، ملجأ إليه صرفه ذلك عن تقديره واحترامه والتفكير فيه . فضلا عن الإيمان به فاتخاذ الإكراه وسيلة إلى اعتناقها . فيه إلباسها ثوب التعقيد والالتواء والغموض ، وإبعاد لها عن متناول العقول والقلوب ، ولا ريب أن هذا ظلم لها أى ظلم ، وهو فى الوقت نفسه من العوامل التى تسىء إليها وتقف حجر عثرة فى طريقها ، وليس من المعقول أن دعوة تريد لنفسها النجاح تحمل فى طياتها عوامل ضعفها وفنائها ، أو ما يسىء إليها ويشوه جمالها .

هذا معنى واضح ، كان لنا الاستغناء به ، والوقوف عنده مطمئنين إلى تقدير الناس له وتحكيمهم إياه فيما بين الإسلام والقتال من علاقة ، ولكننا لا نكتفى به بل نرجع إلى نصوص الدعوة نفسها فننظر هل منها ما يعرف الإكراه فى العقيدة ؟ وهل منها ما يحترم العقيدة التى بنيت على الإكراه ؟ يعتقد كل إنسان أن الجواب عن هذا بين واضح ، ليس من جهة واحدة ، بل من جهات متعددة ، ونواح مختلفة .

فالقرآن يرشدنا فى وضوح وجلاء إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يرد من الناس أن يكونوا مؤمنين عن طريق القهر والإلجاء . بل عن طريق النظر والفكر والتدبر ، ويرشدنا مع هذا إلى أنه لو أراد منهم إيمانا كهذا الإيمان لطبعهم عليه ، وجعلهم كالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، عن طبع وتكوين ، لا يملكون الخروج عليه ولا التخلص منه ، ولكنه لم يشأ ذلك بل ترك الناس وما يختارون لأنفسهم من إيمان أو كفر ، وهداية أو ضلال ، واكتفى بأن أخذ عليهم مواثيق الفطرة ، وأشهدهم بها على أنفسهم ، وأرسل إليهم رسلا تذكرهم ، وتدعوهم إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » : « أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير » وتلك سنة الله . قررها كتابه : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم (١) » : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ (٢) » : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (٣) » : « وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين (٤) » .

[١] سورة هود ١١٨ ، ١١٩ . [٢] يونس ٩٩ .
[٣] المائدة ٤٨ . [٤] الأنعام ٣٥ .

على هذه السنة الكونية ، جاءت الشرائع الإلهية تدعو إلى التوحيد ، وعبادة الخالق وحده على أساس النظر والاستدلال ، وعلى أساس الميل والاختيار ، لا سلطان إلا للعقل ، ولا قهر إلا للبرهان : ولا تجد شريعة من الشرائع الإلهية تفرض على الناس الإيمان عن طريق القهر والإلجاء .

استمع إلى نوح وهو يقول لقومه : « يا قوم : أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » . ثم استمع إلى قوم عاد وهم يقولون لرسولهم : « يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين » ، ثم استمع إليه وهو يقول : « إنى توكلت على الله ربى وربكم . ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها . إن ربى على صراط مستقيم فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم (١) » . ثم استمع إلى إبراهيم وهو يدعو أباه فى لطف ولين . عن طريق الحجة والبرهان وعن طريق الوجدان والعاطفة : « يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ! قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا (٢) . قال : سلام عليك . سأستغفر

[١] سورة هود ٢٨ ـ ٥٣ ـ ٥٧ [٢] أى زمانا طويلا .

لك ربى إنه كان بى حفيا (١) وأعتزلكم وما تدعون من دون الله .
وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا (٢) » . ثم استمع
إلى قول الله لموسى وهارون حين كلفهما الدعوة إليه : « اذهبا إلى
فرعون إنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » . اقرأ
كل هذا وتأمله لتعلم أن السلاح الذى أعطاه الله لرسله المتقدمين ـ
وهم يبلغون الناس دعوته ـ لا يتجاوز البينة الواضحة ، ولفت
الأنظار إلى ما لله من آثار ، جريا على سنته فى الإيمان والكفر
والهداية والضلال .

وقد قص الله كل ذلك على نبيه فى كتابه ، وبين له طريقة
الرسل فى الدعوة إليه . وقال له : « أولئك الذين هدى الله :
فبهداهم اقتده ، ثم بين له وسائل الدعوة فى آية فذة جامعة : « ادع
إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى
هى أحسن .

على هذا الأساس كانت دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم
إلى ربه : « قل هذه سبيلى ، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن
اتبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

وإذا كان ما تقدم شأنا ينتظم دعوة محمد ودعوة إخوانه
السابقين فإن هناك شيئا آخر خص الله به شريعة محمد صلى الله عليه
وسلم إذ جعله فى دعوته أبعد الرسل عن الإكراه ، وعن اتخاذ وسيلة

[١] أى معنيا   [٢] من ٤٣ ـ ٤٧ ـ مريم

من وسائل الإلجاء إلى الإيمان بطريق لا تعتمد على العقل المجرد :
ذلك أن الرسل الأولين كان يصحب دعوتهم فى كثير من الأحيان
خوارق حسية من شأنها أن تلجىء إلى الإيمان ، كإحياء الموتى ، وإبراء
الأكمه والأبرص ، ولكن الله أبى فى شريعة محمد صلى الله عليه وسلم
مجاراة المشركين الذين كانوا يقترحون مثل هذه الآيات : « وقالوا
لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من
نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت
علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف
أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه
قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا (١) » وبين أن آيته
الوحيدة من جنس دعوته الواضحة : برهانية عقلية ، تمتلىء بها
البصيرة ، قبل أن يتناولها البصر ، وتأخذ بالقلب ، قبل أن يأخذها
الحس « وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه . قل إنما الآيات
عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب
يتلى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون . قل كفى
بالله بينى وبينكم شهيداً يعلم ما فى السموات والأرض ، والذين
آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون (٢) » ، « إن
نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين (٣) » .

[١] الاسراء ـ ٣٦ .   [٢] العنكبوت ـ ٥٥
[٣] الشعراء ـ ٤

بمثل هذه الآيات ـ وهو كثير فى القرآن ـ يبين الله كفاية القرآن فى الإيمان بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا يريد أن يلجئهم لما تخضع له أعناقهم ، كما يبين من جهة أخرى أن مهمة الرسول معهم لا تتجاوز التبليغ والإنذار والتبشير وقد قرر الله مهمته بها فى مكى القرآن يوم كان المسلمون قلة لا حول لهم ولا قوة ، وفى مدنيه يوم صارت إليهم القوة وأصبحوا أولى بأس شديد . فمن المكى قوله : « إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم (١) »وقوله : «فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ، إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر . إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم (٢) » ومن المدنى قوله : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فان تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وإن تطيعوه تهتدوا » وما على الرسول إلا البلاغ المبين (٣) » .

وقد تضافرت آيات كثيرة على تقرير هذا المعنى وتوكيده ، فى بيان مهمة الرسول وشأنه فى الدعوة إلى دين الله ، وما أبعد هذا المعنى عن رائحة الإكراه ، وما أشد منافرته لاتخاذ الإكراه وسيلة من وسائل الدعوة .

أكثر من هذا كله أن القرآن يقرر بوضوح وجلاء « أن الإيمان الذى يجىء عن طريق الإكراه لا قيمة له ، ولا كرامة

[١] التكوير ٢٧ — ٢٨ [٢] الغاشية ١١ — ٣٦
[٣] النور — ٥٤

لصاحبه ، فهو يقول لفرعون حين أدركه الغرق وقال «آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل» : « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » (١) « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون (٢) »

وكذلك يقرر القرآن أنه لا يقبل التوبة التى تنبعث عن الإكراه ومعاينة العذاب : « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن » .

وإذا كان القرآن يقرر كما ترى إهدار الإيمان والتوبة اللذين يدفع إليهما الإكراه ، ولا يكون القلب فى سعته مطمئنا إليهما ، فكيف يعقل أن يطلب أو يشرع الإكراه فى الدين أو على الدين من أى لون كان ؟ ! ، لا إكراه فى الدين (٣) قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم » .

* * *

تبين مما تقدم أنه لا يوجد سبب ما ، يبرر لأحد ما . أن يعتقد أو يزعم أن من أساليب الدعوة الإسلامية حمل الناس

[١] يونس - ٩١ . [٢] غافر ٨٤ - ٨٥ . [٣] البقرة - ٥٢٦

على الإيمان بها عن طريق السيف والقتال ، ويتلخص هذا الفصل فى النتائج الآتية :

أولا : ليس فى طبيعة الدعوة الإسلامية من التعقيد والغموض ، والمشقة العقلية ، ما تحتاج معه إلى إكراه جلى أو خفى (١) .

ثانيا ، أن الشريعة الإسلامية ، أخذا من كتاب الله ، لا تغاير أو تخالف سنة الله الكونية التى جعلها أساسا لإيمان من يؤمن وكفر من يكفر ، وهى ترك الناس وما يختارون لأنفسهم عن طريق النظر والاقتناع .

ثالثا : أن الشريعة الإسلامية ، أخذاً من كتاب الله أيضاً ، لا تبيح نصوصها المحكمة الواضحة اتخاذ الإكراه وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله ، شأنها فى ذلك شأن الشرائع السابقة .

رابعا : أن صاحب الدعوة الإسلامية ليس مسئولا أمام ربه إلا عن مهمة الرسالة التى بينها القرآن فى مدنيه ومكيه ، وهى التبليغ والإنذار ، وليس مطالبا بإيمان الناس حتى يسمح له بإكراههم والعنف عليهم (٢) .

خامسا : أن كتاب الله مصدر الدعوة الإسلامية . لا يحترم إيمان المكره ، ولا يرتب عليه آثاره يوم البعث والجزاء ، فكيف

---

[١] يراد بالاكراه الجلى ما كان بالقوة المادية كالحديد والنار والخفى الخوارق الحسية التى تخضع لها الأعناق .

[٢] وهذا غير مسئوليته ومسئولية خلفائه عن تنفيذ شرعه فى أمته .

يأمر بالإكراه أو يبيح اتخاذه وسيلة من وسائل الإيمان بهذه الدعوة .

هذه النتائج يعلمها الناس من القرآن نفسه ، والإيمان بها جزء من الإيمان بالقرآن ، ولهم بعد ذلك أن يسألوا . إذا كان الشأن كما تعطى هذه النتائج التى ينطق بها القرآن . فما شأن آيات القتال التى وردت فى القرآن ؟

وهذا هو البحث الثانى .

آيات القتال

نعرض فى هـذا الفصل آيات القتال التى وردت فى القرآن لنفهم معناها الذى تدل عليه . وغرضها الذى سيقت له ولنعرف نسبة بعضها إلى بعض ، ثم نخلص بعد إلى نتيجتها التى وصلنا إليها فى الفصل السابق .

* * *

عرض القرآن لنوعين من أنواع القتال : أحدهما قتال المسلمين للمسلمين ، والثانى قتال المسلمين لغير المسلمين :

أما الأول : فهو شأن من الشئون الداخلية للأمة ، ونظام من نظمها التى تعنيها وحدها ولا تعنى أحداً سواها فرض القرآن حالة بغى وخروج على النظام العام تقع بين طوائف الرعية بعضها مع بعض . أو بين الرعية وراعيها فوضع لها تشريعاً من شأنه أن يحفظ على الأمة وحدتها وعلى الهيئة الحاكمة سلطانها وهيبتها . ويقى المجموع شر البغى والتعادى ، وهذا هو قوله فى سورة الحجرات : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين

إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » (١)

فهذه الآية تفرض حالة اختلاف يقع بين طائفتين من المؤمنين ولا يستطاع حله بالوسائل السلمية . فتلجأ كل منها إلى القوة وتحكيم السيف . ثم توجب الآية لهذا على الأمة ممثلة فى حكومتها أن تنظر فيما بين الطائفتين من أسباب الشقاق . وتحاول الاصلاح بينهما ، فإن وصلت إلى ذلك عن طريق المفاوضات . وأخذ كل ذى حق حقه ، ورد البغى واستقر الأمن . فقد كفى الله المؤمنين القتال . وإن بغت إحداهما على الأخرى . واستمرت على العدوان وأبت أن تفىء إلى أمر الله . وتنزل على حكم المؤمنين كانت بذلك باغية خارجة على سلطة القانون متمردة على النظام . فيجب على جماعة المسلمين قتالها حتى تخضع وترجع إلى الحق وتشير الآية بعد هذا إلى سر النجاح فى حل ما ينشأ بين الطوائف من خلاف وهو أنه لا ينبغى أن يتخذ من رجوع إحدى الطائفتين إلى الحق سبب للحيف عليها . وانتقاصها حقها ولكن يجب أن يحكم العدل . وأن تأخذ كل طائفة حقها . كاملا غير منقوص . تأمل قوله تعالى فى تذييل الآية : « إن الله يحب المقسطين » .

وكما ترشد الآية إلى هذا . ترشد إلى أن القصد من التشريع إنما هو المحافظة على وحدة الأمة وعدم تفرقها ، والاحتفاظ بأخواتها الدينية

---

[١] الحجرات ٩ — ١٠

التى هى شأن من شئون الإيمان فتقول : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم . واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

وهذا هو التشريع الحكيم ؛ الذى نطق به القرآن الكريم ، على لسان النبى الأمى طريقاً للسلم وقضاء على البغى والعدوان نطق به منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، قبل أن يعرف العقل البشرى ما سماه « عصبة الأمم » أو « مجلس الأمن » واتخذه — كما يقولون — سبيلا لحفظ السلام واستمرار الحريات وتمتع الدول بحقوقها .

هذا هو التشريع الحكيم ، الذى لو فهمته الأمم حق فهمه ومنحته العناية التى تجدر به ، وسارت على منواله ، لما ضلت سبيل الحكمة ! ولسلمت من هذه الويلات المتكررة ، التى يثيرها البغى والعدوان من جانب ، والتخاذل وعدم التضامن جانب آخر .

هذا هو شأن القتال الذى شرعه القرآن بين المسلمين والمسلمات وواضح أنه لا صلة له بأصول الدعوة الإسلامية والإيمان بها .

أما النوع الثانى : وهو قتال المسلمين لغير المسلمين فقد عرض القرآن فى كثير من آياته وسوره وتناوله من جميع جوانبه : عرض للأسباب الباعثة عليه ، وللغاية التى ينتهى عندها ، وعرض لما يجب على المسلمين من الاستعداد له والاحتياط لطوارئه ومفاجآته .

وعرض لكثير من قواعده وأحكامه . ولما يتصل به من هدنة أو معاهدات ، ونحن نذكر فيما يأتى : الآيات التى عرضت لسبب

القتال والآيات التى عرضت لغايته التى ينتهى عندها ، ثم نعرض لعلاقة آيات العفو بآيات القتال .

* * *

أقام المسلمون فى مكة أعواما يسامون سوء العذاب ، ويصادرون فى حريتهم الدينية ، ويضطهدون فى عقيدتهم التى اطمأنوا اليها ويفتنون فى أموالهم وأنفسهم ، حتى أكرهوا على الهجرة ، فخرجوا من ديارهم وأوطانهم ، ثم أقاموا فى المدينة صابرين لأمر الله راضين بحكمه ، وكانوا كلما همت نفوسهم بالرد على الظلم ، أو تطلعت إلى الانتقام من الظالمين ، ردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبر ، وانتظار أمر الله قائلا « لم أومر بقتال لم أومر بقتال » ظلوا كذلك حتى كاد اليأس يساورهم ، ويفضى بهم إلى الظنون . عند ذلك أنزل الله أول آية فى القتال .

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات [١] ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة . وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر . ولله عاقبة الأمور [٢] » .

[١] الصوامع : معابد الرهبان . البيع : كنائس النصارى . واحدها بيعة بكسر الباء . الصلوات : كنائس اليهود .

[٢] الحج ٤٠ — ٤١ —

تناولت هذه الآيات الكريمة الإذن بالقتال . وعللت هذا الإذن بما منى به المسلمون من الظلم وما أكرهوا عليه من الهجرة . والخروج من الديار والأوطان بغير حق .

ثم بينت أن هذا الإذن موافق لما تقضى به سنة التدافع بين الناس ، حفظا للتوازن . ودرءاً للطغيان . وتمكينا لأرباب العقائد والعبادات من أداء عباداتهم . والبقاء على عقيدة التوحيد والتنزيه ثم أرشدت إلى أن الله إنما ينصره بمقتضى سنته من ينصره ويتقيه فلا يتخذ الحرب أداة للتخريب والإفساد . وإذلال الضعفاء . وإرضاء الشهوات والمطامع . وأنه لا ينصر إلا من إذا تمكن فى الأرض عمرها . وأطاع أمر الله فيها . وكان داعى خير ومعروف لا داعى منكر وفساد . والله يعلم المفسد من المصلح « ولله عاقبة الأمور » .

هذه الآية هى الآية الأولى . كما قلنا . من آيات القتال وهى آية واضحة ليس فيها شائبة من شوائب الإكراه فى العقيدة . وإنما هى على العكس تقرر أن التدافع بين الناس سنة من سنن الله الكونية لا بد منها فى حفظ النظام . وبقاء الصلاح والعمران . لولاها لفسدت الأرض . وهدمت أماكن العبادة على اختلافها . وتباين ألوانها . وإنما يكون ذلك بتحكم الأقوياء الطغاة فى الأديان يعبثون بها ولا رادع . ويكرهون عليها ولا مدافع والآية لا تنظر فى ذلك إلى المسلمين خاصة . بل تقول فى جلاء ووضوح « لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد » على هذا الوجه من العموم .

نقرأ بعد هذا آيات القتال التى وردت فى سورة البقرة « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا . إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم (١) . وأخرجوهم من حيث أخرجوكم . والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم . كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله . فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » .

تأمر هذه الآيات أن يقاتل المسلمون فى سبيل الله الذين يقاتلونهم وتأمرهم بتتبعهم حيث وجدوا ، وتشتيتهم كما شتتوهم من قبل . وتنهاهم عن الاعتداء وتؤكد هذا النهى بكراهة الله للعدوان وعدم محبته للمعتدين . ثم ترشد إلى أن إخراج الناس من ديارهم وترويعهم فى أمنهم ، والحيلولة بينهم وبين الاطمئنان على الأنفس والأموال فتنة أشد من فتنة القتل وإزهاق الأرواح ، فليقاتل العاملون عليها والمثيرون لها كما يقاتل المقاتلون ، ثم تمنع الآيات المسلمين عن القتال فى الأماكن المقدسة ، والأزمنة المقدسة حتى يقاتلوا فيها ، فإن انتهكت حرمتهم فيها ، واستبيح قتالهم ، ساغ لهم أن يردوا العدوان مثلا بمثل ، وجزاء بجزاء ، ثم تخلص الآية بعد هذا وذاك إلى بيان

(١) ثقفتموهم : وجدتموهم سورة البقرة — ١٩٤

الغاية التى تضع الحرب عندها أوزارها ، وهى ألا تكون فتنة فى الدين وأن يكون الدين لله ليحصل الناس على حريتهم الدينية من غير اضطهاد فيها ولا تعذيب عليها فإذا ما تحقق هذا الغرض واطمأنت إليه النفوس ، وجب وقف القتال .

هذه الآيات بما تضمنته من المبادىء التى بينا فى سبب القتال وغايته ليس فيها ما يقترب من فكرة الإكراه على قبول الدعوة ، بل هى وسابقتها ناطقة بأجلى بيان ، وأوضح عبارة ، بأن السبب الذى من أجله أمر المسلمون بالقتال ، هو الاعتداء عليهم ؛ وإخراجهم من ديارهم ، وانتهاك ما عظم من حرمات الله ، ومحاولة فتنة الناس فيما يدينون . وكذلك هى ناطقة بأن الغاية التى يجب على المسلمين أن يكفوا عندها عن القتال ، هى انتهاء العدوان عليهم ، وتقرر الحرية الدينية خالصة لله ، غير متأثرة بضغط ولا إكراه .

هذه المبادىء التى أرشدت إليها تلك الآيات ، نراها بعينها أو قريبا منها ، فى كثير من آيات القتال الأخرى الواردة فى سور النساء والأنفال ، والتوبة : ففى سورة النساء « ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا (١) .

(١) النساء ٧٤ .

« فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ، وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ، والله أشد بأسا ، وأشد تنكيلا » (١) .

« فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » [١] .

« فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا » [١] .

اقرأ هذه الآيات ، وقف عند قوله : « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » وقوله : « فإن لم يعتزلوكم » . لتعلم روح الفتنة الذى كان يحمله القوم للمسلمين ، والذى لأجله أمر المسلمون بقتالهم وهذا هو عين ماقررته سورة البقرة فيما سبق : وهو عين ما تقرره سورة الأنفال والتوبة أيضا ، ففى سورة الأنفال قوله تعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير » . وهى على غرار ماجاء فى سورة البقرة ، وفى سورة التوبة كقوله تعالى « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » (٢) .

[١] النساء ٨٤ ، ٩٠ ، ٩١ . [٢] التوبة ١٣ .

وقوله : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين (١) » .

اقرأ هذه الآيات ، وتأمل أولا قوله « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم » ، وتأمل ثانيا قوله «وهم بدءوكم أول مرة » ، وثالثا قوله « كما يقاتلونكم كافة » تأمل كل ذلك لتعلم أن هذه الآيات نزلت فى شأن قوم مردوا على الفتنة ، وتأصلت فيهم عوامل الإفساد حتى لم يصبح للعهود فى نظرهم قيمة ، ولا للفضيلة عندهم ميزان ، وليس من شك فى أن قتال هؤلاء ، وتطهير الأرض منهم ، والقضاء على فتنتهم إنما هو من قبيل الخير العام يسدى إلى الإنسانية جمعاء .

* * *

وقد جاء فى سورة التوبة بعد هذه الآيات آيتان ربما أوهم ظاهرهما خلاف ما تقرر هذه الآيات فى سبب القتال ، نسوقهما هنا ونبين ما يدلان عليه فى ضوء الآيات المتقدمة التى تعتبر — لكثرتها ووضوحها — أصلا فى مشروعية القتال وسببه يجب أن يتحاكم إليه ويخرج ما سواه عليه .

أولا : قوله تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (٢) » .

(١) التوبة ٣٦ (٢) التوبة ٢٩

ثانياً : قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين [١] » .

فالآية الأولى تأمر المسلمين باستمرار مقاتلة طائفة هذه صفتها (لا يؤمنون بالله ، : الخ) قد ارتكبت من قبل مع المسلمين ما كان سببا للقتال من نقض عهد وانقضاض على الدعوة ووضع العراقيل فى سبيلها ، فهى لا تجعل عدم الإيمان وما بعده سببا للقتال ، ولكنها تذكر هذه الصفات التى صارت إليهم ، تبيينا للواقع ، وإغراء بهم مع تحقق العدوان منهم ؛ غيروا دين الله واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دونه يحللون لهم بالهوى ويحرمون ، غير مؤمنين بتحليل الله ولا تحريمه ، وليس عندهم ما يردعهم عن نقض عهد ، ولا مصادرة حق ، ولا رجوع عن عدوان وبغى .

هؤلاء هم الذين تأمر الآية باستمرار قتالهم حتى تأمن شرهم وتثق بخضوعهم ، وانخلاعهم من الفتنة التى يتقلبون فيها ، وجعل القرآن على هذا الخضوع علامة هى دفعهم الجزية التى هى اشتراك فعلى فى حمل أعباء الدولة ، وتهيئة الوسائل إلى المصالح العامة للمسلمين وغير المسلمين [٢] .

[١] التوبه ٢٤ .

[٢] فليست الجزيه كما يتصورها بعض الناس بدلا عن إسلامهم أو دمائهم وإنما هى كما قلنا علامة لخضوعهم وكفهم عن القتال ومصادرة الدعوة ، واشتراك فى مصالح الدولة نظير حماية أنفسهم وأموالهم ؛ وقد ذكر =

وفى الآية مايدل على القتال الذى أشرنا إليه وهو قوله تعالى: « وهم صاغرون » ، وقوله : عن يد » فإنهما يقرران الحال التى يصيرون إليها عند أخذ الجزية منهم ، وهى خضوعهم ، وكونهم بحيث يشملهم سلطان المسلمين ، وتنالهم أحكامهم ، ولا ريب أن هذا يؤذن بسابقية تمردهم وتحقق ما يدفع المسلمين إلى قتالهم .

هذا هو المعنى الذى يفهم من الآية ، ويساعد عليها سياقها ، وتتفق به مع غيرها . ولو كان القصد منها أنهم يقاتلون لكفرهم وأن الكفر سبب لقتالهم لجعلت غاية القتال إسلامهم ولما قبلت منهم الجزية وأقروا على دينهم .

أما الآية الثانية : « قاتلوا الذين يلونكم ... » فليست واردة مورد الآيات السابقة فى بيان سبب القتال وما يحمل عليه ، وإنما جاءت إرشادا لخطة حربية ترسم عند نشوب القتال المشروع فعلا ، فهى ترشد المسلمين إلى وجوب البدء عند تعدد

— أبو يوسف فى كتاب الخراج من ص ٣٥ « أن أبا عبيدة بعدما صالح أهل الشام وجبى منهم الجزية والخراج بلغه أن الروم قد جمعوا له ، واشتد الأمر عليه وعلى المسلمين فكتب رضى الله عنه إلى أمراء المدن التى تم صلحها أن يردوا عليهم ماجبى منهم من الجزية والخراج وأن يقولوا لهم: إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وأنا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا إن نصرنا الله عليهم .

الأعداء بقتال الأقرب فالأقرب عملا على إخلاء الطريق من الأعداء المناوئين ، وتسهيلا لسبل الانتصار [١] .

وهذا المبدأ الذى قرره القرآن من المبادئ التى تعمل بها الدول المتحاربة فى هذا العصر الحديث ، فلا تخطو دولة مهاجمة خطوة إلا بعد إخلاء الطريق أمامها . والاطمئنان إلى زوال العقبات من سبيلها .

وبهذا يتبين أنه لاصلة للآيتين بسبب القتال الذى تضافرت الآيات الأخرى على بيانه .

* * *

اتضح مما تقدم :

(١) أنه لا توجد آية واحدة فى القرآن الكريم تدل أو تشير إلى أن القتال فى الإسلام ، لحمل الناس على اعتناقه .

[١] قد وقف بعض من يقصد الكيد للإسلام عند ظاهر هذه الآية : « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » وزعم أن الدين الإسلامى يأمر بقتال الكفار عامة ، حصل اعتداء منهم أم لم يحصل حتى يؤمنوا ويدينوا بالإسلام — قالوا : وقد استقر الحكم فى الشريعة على هذا ، والواقع أن المراد من كلمة الكفار فى الآية ونظائرها ، المشركون المحاربون الذين قاتلوا المسلمين واعتدوا عليهم ، وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم ووقفوا فتنة للناس فى دينهم وهم الذين تحدثت عن أخلاقهم أوائل سورة التوبة .
وكذلك المراد من كلمة «الناس» الواردة بحديث «أمرت أن أقاتل الناس» فان الذى يتوقف انتهاء قتاله على ما ذكر فى الحديث بالإجماع هم مشركو العرب خاصة أما غيرهم فيكفى فى انتهاء قتاله أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .
وبهذا تتفق الآيات بعضها مع بعض ، ويجمع بينها وبين الأحاديث ويسقط مثل ذلك الزعم الباطل .

(٢) وأن سبب القتال — كما تدل عليه الآيات السابقة — ينحصر فى رد العدوان وحماية الدعوة وحرية الدين.

(٣) وأن القرآن حينما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع والاستئثار وإذلال الضعفاء، وابتغاه طريقا إلى السلام والاطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة.

(٤) وأن الجزية لم تكن عوضاً مالياً عن دم أو عقيدة، وإنما هى علامة على الخضوع وكف الأذى ومشاركة فى حمل أعباء الدولة.

وليس لأحد بعد هذا أن يفترى على الإسلام. أو يسىء فهم آيات القرآن، فيزعم ما يزعمه الجاهلون من أن الإسلام قرر القتال طريقاً لدعوته، ووسيلة للإيمان به، وأنه إنما قامت دعوته وانتشرت عقيدته على أساس من الضغط والإكراه.

ونحن نسوق هنا آية فى سورة الممتحنة هى بمثابة دستور إسلامى فى معاملة المسلمين لغير المسلمين:

قال الله تعالى: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون.

اقرأ هذا الدستور ثم ارجع إلى سورة المائدة وهى من

أواخر القرآن نزولا، واقرأ منها فيما يتصل بعلاقة المسلمين بغيرهم قوله تعالى:

«اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم، وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين [١].

اقرأ هذا وذاك لتعلم روح السمو التى يحملها الإسلام فى علاقته بغير معتنقيه: بر، وقسط، وتعاون، ومصاهرة. وهى علاقة يتضاءل أمام روعتها أحدث مبدأ عرفه العقل البشرى فى العلاقات الدولية العامة.

(١) المائدة ٥.

أخرى كثيرة منبثة فى جميع سور القرآن تأمر بالعفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة ، والدعوة إلى الله بالحكمة .

وهذه كلها أنواع من التناقض — كما يزعمون — لا يتفق معها أن يكون القرآن الذى جاء به محمد وحيا يوحى إليه من عند الله ؟ .

وأما أصدقاء القرآن وخدمته فيقولون : إن آيات القتال نسخت آيات العفو والصفح ، حتى قوله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن . . » وقوله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »

ويقولون إن آية التوبة « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » نسخت ما تقدم بين يديها من آيات العفو .

ومن عجيب أقوالهم أن آيه « واقتلوهم حيث ثقفتموهم » فى البقرة نسخت لآية قبلها « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » وأن آية « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » فى هذه السورة أيضا نسخت التى قبلها : « ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه » .

فهذه الجملة القرآنية التى وردت فى سورة البقرة مكونة من أربع آيات صارت بهذا الصنيع آيتين ناسختين وآيتين منسوختين الثانية نسخت الأولى ، والرابعة نسخت الثالثة ! ! .

وقد قال الإمام الرازى فى تفسيره تعليقا على هذا الرأى :

علاقة آيات العفو بآيات القتال

ويجدر بنا ألا نترك هذا المقام حتى نعرض لمسألة شغلت أذهان كثير من الناس الذين ينظرون فى القرآن ، ويقارنون بعض آياته ببعض .

وأمامنا من هؤلاء طائفتان :

طائفة خصوم الدين الذين يلتمسون فى القرآن الكريم مطعنا .

وطائفة من المفسرين تحملهم غيرتهم الدينية على التوفيق بين ما يظن فيه تناقضا مع غيره من آيات القرآن ، فيجنحون إلى القول بنسخ بعض الآيات لبعض وقد أسرف بعض هؤلاء فيما اندفعوا إليه بما يخيل أنهم مهدوا به طريق الطعن لخصوم الدين والقرآن من حيث لا يريدون .

فأما الخصوم فقد نظروا فيما بين آيات القتال بعضها مع بعض وفيما بينها جملة ، وبين آيات العفو والصفح فقالوا : بينما ترى بعض آيات القتال يأذن فى القتال ويبيحه إذا البعض الآخر يحتمه بشدة ويطلبه بتحريض ، وبينما ترى بعض هذه الآيات يطلب قتال المعتدى ويمنع البدء بالعدوان ، ترى البعض الآخر يأمر بقتال الجميع مع غير رحمة ولا هوادة ولا تفريق بين معتد وغيره وبينما ترى جملة هذه الآيات تطلب القتال وتقرره ، ترى آيات

إنه يبعد من الحكيم أن يجمع بين آيات متوالية تكون كل واحدة منها ناسخة للأخرى .

ولا يبعد أن يكون هذا الصنيع مهد لخصوم الدين أن يقولوا بتناقض القرآن ، إنهم لا يريدون النسخ الذى يدعيه أصدقاء القرآن ، وكيف يقبلون دعواه منا فى القرآن ومن علمائنا ، من لم يقبله فيه ؟ .

ولعلك تشعر بعد العرض الذى عرضنا به آيات القتال أنه لا تناقض ولا تعارض بين بعضها وبعض ولا محل للقول بالنسخ فيها ؛ لأن النسخ لا يكون إلا عند التعارض ، فهى إذاً محكمات باقيات تتلاقى جميعها عند حد واحد . تقرر حكما واحداً وسببا واحداً وغاية واحدة .

أما آيات الصفح والعفو فهى ترمى إلى تكوين الجانب الخلقى ويجب العمل بها فى دائرتها التى لا تخدش العزة والكرامة ، ولكل مقام مقال ، ولكل حال تشريع ، فهى أيضا محكمات باقيات .

إن التشريع الذى يبنى على مراعاة الأحوال وشئون الأفراد والجماعات ، ويطلب من الناس أن يسلكوا فى كل حالة ما يناسبها لا يمكن أن يرمى بأنه تشريع متناقض أو أن بعضه ناسخ لبعض وإنما هو فى نظر العقول السليمة تشريع حكيم غاية فى الدقة ، ناهض بأهله ، محقق لغايته وهى سعادة الفرد والجماعة .

آيات تنظيم القتال

كان من نتائج البحث الأول أن سبب القتال كما يدل عليه القرآن ينحصر فى رد العدوان ، وحماية الدعوة ، وحرية الدين وفى هذه الدائرة وحدها شرع الله القتال ، وحث عليه ، ورغب فيه . وأرشد إلى كثير من قواعده وآدابه التى تضمن النصر والظفر . ونعرض فى هذا الفصل الآيات التى عرضت للقتال من هذه الناحية .

وإن من يتتبع هذه الآيات من كتاب الله يجدها تضع للمسلمين مبادئ عامة يتكون منها قانون موضوعى للقتال ، له مكان القمة بين نظم العصر الحديث ، والمدنية الحاضرة .

والقانون الموضوعى للقتال فى أمة تريد لنفسها العزة والكرامة ، يقوم على عناصر ثلاثة :

العنصر الأول : تقوية الروح المعنوية فى الأمة .

العنصر الثانى : إعداد القوة المادية .

العنصر الثالث : التنظيم العملى للحرب .

وقد تناول القرآن ، وهو يرسم للناس سبل الحياة الطيبة ، هذه العناصر الثلاثة بأساليب تنتظم كل ما تجود به القرائح فى شتى العصور ومختلف الحضارات ، لا تقف عند عصر ، ولا تضيق بما يجد من نظم وأدوات ، ثم هى مع قوتها واتساعها تملك على الناس أفئدتهم ، وتملؤها بمعانى الرحمة والشفقة ، كما تعمرها بروح

الإخلاص وابتغاء مرضاة الله فى تطهير الأرض من الفساد وخلوها من عوامل البغى والعدوان ، وإنك لتجد هذه المعانى ماثلة فى كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة .

* * *

فالعنصر الأول : وهو تقوية الروح المعنوية عند الأمة يقول القرآن فيه : فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما ، وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا ، الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا (١) » .

يحرك عواطفهم نحو القتال ، فيذكر لهم أنه قتال فى سبيل الله الذى يضاعف ثواب العاملين وأجر المجاهدين . قتال فى سبيل إنقاذ الضعفاء والبر بالإنسان ومقاومة الجبروت والطغيان ، قتال لدحض عوامل الشر والإفساد .

ويقول : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ؟ لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله

[١] النساء ٧٤ — ٧٦ .

بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا ، إن الله عنده أجر عظيم [١] » .

اقرأ هذه الآية وكررها فى نفسك مرة بعد أخرى ثم قف طويلا عند قوله : « إن الله عنده أجر عظيم » لتعلم أن أجر المجاهدين فى سبيل الله بالنفس والمال لا يقف عند حد ، ولا يحيط به إلا عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال .

ويقول : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم [٢] » .

يذكرهم بهذا العهد الإلهى الذى أخذه على نفسه للمجاهدين فى سبيله ، ويبينه فى جميع كتبه ، ويبرزه فى صورة تعاقد بين بائع ومشتر يقتضى على كل من الطرفين الوفاء بما التزم من حقوق ذلك التعاقد ، ويؤكد لهم أن القيام بمقتضى هذا العهد والتضحية فى سبيل المحافظة عليه هو الفوز الذى ليس بعده فوز .

ويقول : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين [٣] » .

[١] التوبة ١٩ — ٢٢ .   [٢] التوبة — ١١١ .
[٣] التوبة — ٢٤ .

تستوعب هذه الآية جميع النواحى التى ينبعث من قبلها فى العادة الجبن والخور ، وتطلب من المؤمنين التضحية بها جميعاً فى سبيل الله والحق ، فى سبيل الخير والسعادة ، فلا الآباء ولا الأبناء ولا الإخوان ولا الأزواج ولا العشيرة ، ولا الأموال التى بذلت فى سبيل الحصول عليها الراحة والهناءة ، ولا التجارة التى يخشى بوارها ، ولا المساكن المحببة إلى النفوس ، لا شىء من ذلك كله يصح أن يحول بين المؤمنين وما تقتضيه محبة الله ورسوله من تضحية وجهاد « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون [١] » فالإيمان الصادق عقيدة فى الله والرسول تسمو عن الشكوك والريب ، وتقضى ببذل النفس والمال ، جهاداً فى سبيل الله .

بمثل هذا الأسلوب القوى ، وهو كثير فى القرآن ، يحارب الله عوامل الضعف ونزعات الخوف ، ويغرس فى نفوس الأمة خلق الشجاعة والتضحية والاستهانة بزخرف هذه الحياة فى سبيل الحق ونصرته .

* * *

وكما يعمل القرآن على غرس هذه الأخلاق فى نفوس الأمة عامة ويبنى منها رجالا أقوياء الروح والقلب ، يعمل بوجه خاص على غرسها فى نفوس المجاهدين أنفسهم ، فهو يقول فيما يحكيه عن المجاهدين الذين تم لهم النصر والظفر فيما مضى : « كم من فئة

[١] الحجرات — ١٥ .

قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . ، ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله ، وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء [١] » . ويقول مخاطبا نبيه ومذكراً له بموقفه وهو يبعث فى نفوس المجاهدين القوة والشجاعة ، ويحثهم على الإقدام والثبات ، ويصور لهم مدد الله الذى يطمئنهم به : إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم [٢] هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وما جعله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم [٣] » . ويقول : ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين : وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين [٤] » .

[١] البقرة ٢٤٩ — ٢٥١ .

[٢] من فورهم : يعنى من ساعتهم : مسومين بالفتح . معلمين . وبالكسر : معلمين أنفسهم بعلامة . وقيل : مرسلين خيلهم فى الغارة قرح جرح ، والمعنى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر .

[٣] آل عمران ١٢٤ — ١٢٦ [٤] آل عمران ١٣٩ — ١٤٢ .

يهون عليهم مايصيبهم فى سبيل الله ويرشدهم إلى أن الإيمان يجعل من صاحبه قوة لاتلين، وعزمة لاتفل، وأن سنة الله فى القتال أن يداول بين الفريقين، وأن العاقبة للصابرين: «ولا تهنوا فى ابتغاء القوم، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليما حكيما».

هذا قليل من كثير فى تقوية القرآن للروح المعنوية عند الأمة عامة، والمجاهدين خاصة.

* * *

والعنصر الثانى: وهو إعداد القوة المادية، يقول القرآن فيه: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم [١]». ويقول: «ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة [٢]».

ترشد الآية الأولى إلى أمرين لهما خطرهما فى حياة الأمم. القوة والرباط. فالقوة تتناول العدد والعدة، وهى كلمة تتسع لكل ماعرف ويعرف من آلات الحرب، وآلات النقل ومواد التموين. والرباط كلمة تتسع لكل ماعرف ويعرف أيضاً فى تحصين الثغور ومداخل العدو ثم بينت الآية بعد ذلك، فائدة

[١] الأنفال ٦٠. [٢] النساء ١٠٢.

الإعداد للسلم والاستقرار، وهى إرهاب العدو حتى لا تحدثه نفسه باستغلال ناحية من نواحى الضعف والتخاذل.

أما الآية الثانية فهى ترشد إلى أخذ الحيطة والحذر من العدو مخافة أن ينقض انقضاض الصاعقة وهم عنه غافلون.

إشارة القرآن إلى ما فى الحديد والمعامل من وجوه النفع:

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نسوق هذه الآية الفذة، ذات المغزى العظيم فى لفت الأنظار، وتنبيه العقول، إلى ما فى «الحديد» من قوة تشد عضد المؤمنين فى التمسك بحقهم، والمحافظة عليه هى قوله تعالى فى سورة الحديد: «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس؛ وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوى عزيز» [١]

انظر كيف زاوج بين الكتاب والميزان، وبين الحديد فى أنه أنزل الجميع، وكيف خلع على الحديد الذى به قوام الميزان وحفظ القسط، هذين الوصفين: البأس الشديد والنفع العظيم. تأمل هذا ثم انظر مم تتخذ أدوات القتال برية وبحرية وجوية، وما الحديد فى كل هذه الأدوات؟ ثم تأمل فى قوله بعد «وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب» لتعلم أن نصر الله معقود لمن سخر الحديد واتخذ منه القوة والبأس.

(١) الحديد ٢٥.

وإذا عرف المسلمون قيمة فضل الله عليهم وعلى الناس «بالحديد» الذى أنزله ، فليعرفوا فضل الله على نبيه داود فى إلهامه طرق الانتفاع بهذه المادة . وقد قص الله علينا ذلك فى كتابه لتكون لنا منه العبرة والذكرى . اقرأ قوله تعالى فى سورة سبأ :

« ولقد آتينا داود منا فضلا : يا جبال أوبى [١] معه ، والطير ، وألنا له الحديد ، أن اعمل سابغات [٢] ، وقدر [٣] فى السرد ، واعملوا صالحا ، إنى بما تعملون بصير [٤] » .

ثم اقرأ فضل الله على سليمان فى قوله من السورة نفسها (١٢ - ١٣) «ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر [٥] ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ؛ ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ،

---

[١] فى الألوسى : « وقيل المعنى : ارجعى إلى مراده فيما يريد من حفر واستنباط أعين واستخراج معدن ووضع طريق» اهـ .

[٢] السابغات : الدروع .

[٣] السرد : النسج ، واستعير لنظم الحديد ، والمعنى أحكم حلقها فى الوضع والمقدار بحيث تقوى على الدفاع ولا ينال صاحبها من خللها اهـ ألوسى .

[٤] سبأ — ١٠ — ١١ .

[٥] القطر النحاس الذائب والإسالة بمعنى الإلانة التى كانت لداود .

اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور [١] » .

ويجدر بنا أن نسوق هنا كلام الرازى فى تفسير قوله تعالى فى سورة ص (٣٠ - ٣٣) : «ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد ، إنه أواب . إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب . ردوها على - فطفق مسحاً بالسوق والأعناق» لتعلم أن الرباط شأن قديم اتخذه أقدم الأمم حضارة ، وأكبرهم عدة وأقواهم فكرة - قال :

« إن رباط الخيل كان مندوبا إليه فى دينهم ، كما أنه كذلك فى دين محمد صلى الله عليه وسلم . ثم إن سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها ، وذكر أنى لا أحبها لأجل الدنيا ونصيب النفس ، وإنما أحبها لأمر الله وطلب تقوية دينه ، وهو المراد من قوله « عن ذكر ربى » . ثم إنه عليه السلام أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب ، أى غابت عن بصره ، ثم أمر الرائضين بأن يردوا تلك الخيل إليه ، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها والغرض من ذلك المسح أمور :

---

[١] ترشد الآية إلى أن مصانع سليمان كانت تخرج القصور وأدواتها من الجفان والقدور وكانت تخرج التماثيل ، وقد فسرت بتفاسير كثيرة منها أنهم كانوا يعملونها كالحيوانات فى أسفل الكرسى ، وكانت تتحرك بآلات عند الصعود . قال الألوسى : وقد انتهت صنائع البشر إلى مثل ذلك فى الغرابة .

(الأول) التشريف لها ، والإبانة عن عزتها لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدو .

(الثانى) أنه أراد أن يظهر أنه فى ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أدنى الأمور بنفسه .

(الثالث) أنه كان أعلم بأحوال الخيل وأمراضها وعيوبها فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض . . . » .

ومما يتصل بالصناعات وفائدتها فى الأمم ، ما حكاه الله عن نبيه نوح : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » .

فهذه سفن الإنقاذ : والأمم كما تحتاج فى حياتها إلى سفن الإنقاذ تحتاج إلى سفن الدفاع والهجوم والنقل التجارى وما إليه مما تستدعيه نهضة الأمة وحاجاتها . قال الله تعالى : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » . وإلى أن يتصل المسلمون بتعاليم دينهم ، وإرشادات كتابهم ، ويفقهوها ، ويعملوا بها ، سيظلون فى عناء من العيش ، وضعف من السلطان ، ووهن من القوة وذلة فى الحياة (١) .

---

[١] ولما كان إعداد القوة متوقفا على المال ، حثت آيات كثيرة على البذل فى سبيل الله ، من ذلك قوله تعالى بعد آية الإعداد « وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » أى : يوف إليكم عن طريق —

أما العنصر الثالث : — وهو التنظيم العملى للحرب —

فقد تناوله القرآن بأصول عامة من جهات متعددة .

(١) فى أسباب المعافاة من الجندية : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله (١) » ، فجعل أسباب المعافاة من الجندية محصورة فى الضعف . ويتناول الضعف بعجز أو شيخوخة ، وفى المرض وفى عدم القدرة على الإنفاق ، ولم ير القرآن أن منها حمل الشهادات العلمية . ولا الانتساب إلى الجامعات ، ولا حفظ القرآن الكريم ، ولا دفع بدل نقدى ، ولا البنوة لحاكم كبر أو صغر مما عهدناه فى عصور الضعف والانحلال بل كان العمل فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم والعصور التالية له على عكس هذا وما كان التفكير فى جمع القرآن إلا مخافة أن يذهب بذهاب القراء الذين كانوا أكثر القوم إقداما وبسالة فى حرب اليمامة ، وكان إقدامهم وجرأتهم على اقتحام صفوف الأعداء سبباً فى أن يستحر القتل فيهم .

— تركيز قوتكم فى بلادكم وفتح بلاد أعدائكم ومنه قوله بعد آية القتال فى سورة البقرة : « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ، والتهلكة تشير إلى تهلكة البخل والشح فى الدفاع الوطنى .

(١) التوبة ٩١ .

(٢) فى إعلان الحرب — اوجبه القران ، وحذر انتهاز غفلة العدو وأخذه على غرة : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين [١] » تأمر الآية بطرح العهد عند توجس الشر منهم ، وتطلب أن يكون هذا النبذ صريحا واضحا حتى لا تكون خيانة من المسلمين لا يحبها الله ولا يرضاها .

(٣) فى تلبية الدعوة إلى الجهاد ـ حذر التباطؤ فيها والتثاقل عنها « يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ! أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ! فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا ، والله على كل شىء قدير [٢] » .

ينذرهم إذا هم تثاقلوا عن تلبية الدعوة إلى الجهاد بالعذاب الأليم عذاب الذل والاستعباد ، وزوال الملك والسلطان إلى قوم غيرهم .

(٤) فى تطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان : « لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ، ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ، ألا فى الفتنة

[١] الأنفال ٥٨ . [٢] التوبة ٣٨ — ٣٩ .

سقطوا ؛ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . إن تصبك حسنة تسؤهم ، وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون » . إلى أن يقول: « لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون » . وإلى أن يقول : « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين » . وإلى أن يقول : « يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » (١) .

وعليك أن تتبع ما ورد فى شأن غزوة تبوك بسورة التوبة لتستخلص الخلال السيئة التى هى عنوان الجندية الشريرة ، وستجد فيها ما يجب التنبه له وقت التجنيد وإعداد العدد القوية المخلصة فى إحراز النصر والظفر ، ثم اقرأ من سورة الأحزاب (١٢-٢٠) قوله : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض » إلى قوله « ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا » لتزداد علما بأوصاف المعوقين المخذلين .

(٥) فى تنظيم التعبئة : أشار القرآن إلى أن التعبئة تكون على حسب الحاجة ، فإذا دعت إلى خروج الجميع خرج الجميع ، وإذا كفى البعض اكتفى بخروج البعض ، وظل الباقى قائما بأعماله الداخلية ، ومدداً للجيش من ورائه ، والأصل فى هذا قوله تعالى :

(١) التوبة ٤٧ — ٥٠ — ٥٧ — ٨٣ — ٩٦ .

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون(١) » . وقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا (٢) » .

(٦) فى تنظيم الجيش وتوزيع وحداته على مواضع الدفاع . انظر عمل النبى فى قوله تعالى : « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال » ، ثم تأمل قوله تعالى : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٣) » .

(٧) فى السمع والطاعة للقيادة العامة والثبات فى المواقف وتجنب أسباب الفشل والاعتصام بالإيمان واليقين : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا (٤) وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين (٥) » .

(٨) فى حكم الفرار من الصف . حذر القرآن منه ، وبين سوء عاقبته : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً

[١] التوبة ١٢٢ . [٢] النساء ٧١ . [٣] الصف ٤ .

[٤] وإذا رأى الإمام توحيداً للأمة ، واتقاء لأسباب الفشل وقف ما جرت به العادة فى الأمم من القوانين العامة ، ووضع قوانين أخرى لذلك كان حتما عليه أن يفعله ، لأنه أصبح وسيلة للواجب وهذا هو أصل ما يعرف فى العصر الحديث بإعلان الأحكام العسكرية .

[٥] الأنفال ٤٥ — ٤٦ .

فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير (١) » .

(٩) فى ترتيب الهجوم عند تعدد الأعداء طلب القرآن فى ذلك أن يبدأ بالأقرب فالأقرب ، لإخلاء طريق الجيش مما عسى أن يعترضه من عقبات الأعداء « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين (٢) » .

(١٠) فى أسرار الجيش : حذر من إذاعتها ، وجعل إذاعتها من شأن المنافقين ، وطلب الرجوع بها إلى القيادة العامة ، كما طلب من المؤمنين أن يتثبتوا فيما يصلهم من أنباء قبل الركون إليها والعمل بها ، قال تعالى « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا (٣) » .

وقال : « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون (٤) » . وقال : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه الى الرسول وإلى

[١] الأنفال ١٥ — ١٦ . [٢] التوبة ١٢٣ .
[٣] الأحزاب ٦٠ . [٤] الأنفال ٢٧ .

أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » . [١] وقال : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » [٢] .

(١١) فى الهدنة والصلح : أمر القرآن بتلبية دعوة السلم ووقف الحرب إذا جنح إليها الأعداء ، وظهرت منهم مخايل الصدق والوفاء : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين [٣] » .

(١٢) فى الأسر ومعاملة الأسرى . « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض(٤) » ، وقد خير الإمام إذا أثخن فى الأرض وحل له الأسر ، بين أن يمن عليهم ويطلقهم من غير فدية ولا مقابل ، وأن يأخذ عنهم الفدية من مال ورجال ، وذلك على حسب ما يرى من المصلحة . « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق . فإما منا بعد وإما فداء (٥) » .

(١٣) فى العهود والمحافظة عليها : للقرآن عناية خاصة بالمحافظة على العهود . أوجب الوفاء بها ، وحرم الخيانة فيها ، والعمل على نقضها ، وأرشد أن يكون القصد منها إحلال الأمن والسلم محل

---

[١] النساء ٨٣ . [٢] الحجرات ٦ .
[٣] الأنفال ٦١ — ٦٢ . [٤] الأنفال ٦٧ .
[٥] محمد ٤ .

الاضطراب والحرب ، وحذر أن تتخذ وسيلة للاحتيال على سلب الحقوق ، والوقيعة بالضعفاء ، انظر قوله تعالى فى سورة النحل : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة » [١] .

(١٤) إذا تبين للإمام مفاسد تلحق المسلمين من جراء المعاهدات وكانت تلك المفاسد تربو على مصالح بقائها وجب نبذها ، ووجب أن يكون نبذها إعلانا وجهرة . اقرأ قوله تعالى فى أول سورة التوبة : « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله » .

---

(١) أنكاثا : منقوضة . والأنكاث جمع نكث وهو نقض الغزل بعد إحكامه ، ويشمل نقضه على أن يغزل ثانية وكلمة دخل تجمع معانى الغش والفساد والخديعة . وكلمة أربى تجمع معنى الزيادة فى القوة والمال وسعة السلطان . والآية تحذر من نقض العهود وإبرامها على وجه لا تطمئن إليه نفوس المتعاهدين ، فتظل تحت هيمنة القوة التى لا تعرف حقا ولا سلاما . وتحذر من اتخاذها وسيلة للاحتيال على استلاب الضعفاء الذين تلجئهم الظروف إلى قبولها . فهذه معاهدات دلت حوادث الزمن على فسادها ، وسوء مغبتها « ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله » وانظر بعد ذلك فيما ترشد إليه الآية وانظر ما تقوم به أمم الحضارة الحديثة من معاهدات كانت مصدرا لنكبة العالم . وليعتبر بذلك أولو الأبصار .

هذا ما تيسر لنا فى ذلك الوقت أن نستخلصه من آيات القرآن الكريم أصولا لنظام العمل للحرب . والقرآن الكريم لا تنفد ذخائره ، وكلما أمعن الإنسان فى إشاراته ، وتأمل فى دلالاته ، وصل إلى جديد . وإن خير معوان لتفهم القرآن الكريم وقائع الكون وحوادث الزمن ، فهى أقوى مفسر . وأوضح سبيل للوقوف على أغراضه والوصول إلى مبادئه . وإن من يتتبع ما جاء فيه عن المواقع الحربية التى قام بها الرسول . يظفر بشىء كثير من تلك الأغراض والمبادئ التى تضاعف إيمان المؤمنين بأن القرآن لم يكن إلا وحيا يوحى من عند خالق القوى العليم بطيات النفوس .

التطبيق العملى لأحكام القرآن

فى القتـــال

نورد فى هذه الخاتمة التطبيق العملى لهذه المبادئ التى جاء بها القرآن الكريم فى القتال ، على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخليفتيه أبى بكر وعمر ، أما فيما بعد فقد انتاب المسلمين شئون داخلية وخارجية لوت عليهم السبيل فى التزام ما شرع الله من نظم وقوانين ، ودفعت بهم فيما يختص بالقتال إلى دائرة أوسع مما رسم الله للجهاد فى سبيله .

* * * *

إن أطوار حياة الرسول ومن معه من المؤمنين قبل القتال ترجع إلى :

(١) الدعوة السرية التى آمن بها نفر قليل كانت تجمعه وإياهم وشيجة الرحم أو الصداقة التى كشفت عن سمو روح النبى صلى الله عليه وسلم ، وعظمة أخلاقه .

(٢) الدعوة الجهرية الموجهة إلى عشيرته الأقربين ثم الموجهة إلى الناس أجمعين .

(٣) دور المساومة وإغراء الرسول على ترك الدعوة فى مقابلة ما يشاء من مال أو ملك أو سيادة .

(٤) دور العنف والاضطهاد ، وقد دون التاريخ من حوادث التعذيب ما تقشعر من ذكره الجلود .

(٥) الهجرة إلى أرض الحبشة فرارا بالدين ، وحفظا للأرواح .

(٦) التدبير والتكيد والتآمر على النبى والمسلمين بل على بنى عبد مناف عامة كى يسلموا الرسول وأصحابه ولا يحموهم من عدوان المشركين ، وقد كان من آثار ذلك أن وضعوا الحصار على شعب أبى طالب ، واشتدت وطأته على المسلمين ، وكاد الأمر — لولا أمر الله — يقضى على روح المقاومة فيهم .

(٧) الالتجاء إلى الطائف ، والتماس النجدة من ثقيف ، ومقابلتهم للرسول وصحبه بالهزء والسخرية وردهم على أعقابهم .

(٨) الهجرة إلى المدينة ، وقد تهيأت ظروفها بواسطة الوفود التى كانت تقدم إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وما كان يقوم به من عرض الدعوة على القبائل ، وبهذين أخذت الدعوة تسرى بما تحمل فى طبيعتها من جلال وجمال حتى كونت لنفسها أنصارا من شباب يثرب عاهدوا الرسول على الموت فى سبيل نشرها وحمايتها ، وكان من آثار هذه الهجرة أن اشتد غيظ المشركين وازداد حنقهم على فوات الفرصة التى كانوا يبذلون جهدهم فى الحصول عليها للفتك بمحمد وأصحابه .

(٩) دور العداة بين المسلمين واليهود فى المدينة . فإنه لم يكد الرسول صلى الله عليه وسلم يستقر به المقام فيها حتى ظهر له أن اليهود الذين كان يظنهم أقرب إلى دعوته لأنهم أهل كتاب .

ولأنهم كانوا يستفتحون به على المشركين من قبل فى حروبهم . ينكرون عليه دعوته ويكيدون له ولأصحابه ، فحمله ذلك على أن مد يده إليهم منعا للفتنة ، وعاهدهم على أن يتركهم وما يدينون . وبهذا العهد اطمأن بعض الشىء ، ووجه عنايته واهتمامه إلى أعدائه الأولين الذين أفرغوا سمومهم بعد هجرته فى إخوانه الذين قعدت بهم أحوالهم المادية عن الهجرة ، والذين لم ينفكوا عن تحين الفرص للوقوف فى صدر تلك الدعوة ، وتشتيت أمر القائمين بها .

(١٠) دور التحرش — قدر النبى صلى الله عليه وسلم أنه إذا لم يعمل على نشر دعوته فى المدينة ، وهو ما كلف به من ربه ، لا بد أن يتخذ أعداؤه المكيون سبيلا لمفاجأته والدخول عليه فى بلده الجديد ، خصوصاً أن اليهود الذين عاهدهم لم يكونوا من الإخلاص بحيث يأمن بقاءهم على العهد ، وأنه لا يبعد أن يفسحوا مجال المدينة للعدو الخارجى ، وتتفق بذلك كلمتهم على مطاردة المؤمنين من المدينة ، كما طوردوا من قبل ، فى مكة .

لهذا كله تهيأ الرسول وصحبه إلى منابذة خصومه وخصوم دعوته أهل مكة ، وأخذ يناوشهم ويظهر لهم قوته ، وروح العزم على المضى فى الدعوة والعمل على نشرها وحمايتها ، وعلى إنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان . الذين يقولون . « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » وبهذه الروح بدأ القتال العملى

بين المؤمنين والمشركين وحصلت بين الفريقين وقائع ذكر بعضها فى القرآن الكريم ، وقد كلل الله جميعها بالفتح والنصر المبين .

(١١) اليهود ينقضون العهد — لم يستطع اليهود أن يطهروا قلوبهم من أدران الحقد والحسد . ولقد كان توالى نعم الله على نبيه وأصحابه المؤمنين سبباً فى إذكاء نار العداوة فى قلوبهم حتى دفعتهم إلى نقض العهود التى أبرموها مع الرسول — فعل ذلك بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، واندلعت ألسنتهم جميعا بسب الرسول ومناوأة المؤمنين . فى وقت ما أحوجه فيه إلى قلة الخصوم ، وتضييق ميادين القتال .

ولكن هكذا ابتلى الله المؤمنين . فلم يجدوا بدا من أن ينبذوا إليهم عهدهم ، وأن يدخلوا معهم فى طور جديد ، طور العداء والمحاربة بعد طور السلم والمعاهدة .

* * *

هذه هى الأطوار التى مرت بالرسول قبل الهجرة وبعدها . ومنها يتضح أن مشركى مكة كانوا محاربين للنبى من مبدأ الدعوة وأنهم بدءوا بالعدوان ، وطاردوا المؤمنين المرة بعد الأخرى من ديارهم ، واستبدوا بالمستضعفين يذيقونهم ألوان العذاب ومر النكال ، ويتضح أن يهود المدينة لم يقاتلهم الرسول إلا بعد أن نقضوا عهدهم معه ، ووقفوا فى وجهه كما وقف المشركون من قبل .

ومن هذا وذاك يتبين جليا أن الرسول لم يقاتل إلا من قاتله . وإلا دفعا للظلم . وردا للبغى والعدوان . وقضاء على الفتنة فى الدين . وهذا هو عين ما قررته الآيات الواردة فى سبب القتال كما تقدم .

* * *

وقد كانت الحروب التى قام بها بعد الرسول صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما : تتميم بناء وضع أساسه الروم والفرس بأيديهم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم . ولم يكن من الخليفتين سوى دفع الشر وتمكين الناس من النظر فى الدعوة . وتأمين المسلمين على دينهم وبلادهم .

وجه النبى صلى الله عليه وسلم بحكم الرسالة . دعوته إلى ملوك الفرس والروم . فأرسل إلى ملك الروم كتابه المشهور يدعوه فيه إلى الإسلام . ويحمله — إن تولى — إثم الرعية . فلما ترجم له الكتاب جمع بطارقته وعظماء دولته . وعرض عليهم كتاب الدعوة . واستشارهم فى قبولها . وعندئذ حاصوا حيصة الحمر . وزأروا زئير الأسود . وأظهروا كراهة موقفه من هذه الدعوة . فعاد يلاطفهم ويقول لهم : إنما قلت ما قلته لأختبر صلابتكم فى الدين والملك . وبذلك نكص على عقبيه ، وآثر الملك على الإسلام . ثم أخذ عظماؤه وبطارقته ينفثون سموم الحقد على الدعوة وصاحبها فى قلوب الأمراء والأتباع . وكان من ذلك أن شرحبيل الغسانى

قابل رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمير بصرى - عند مؤتة - وعرف وجهته وعرف أنه من رسل محمد صلى الله عليه وسلم، فأمر به فضربت عنقه. وقد قدروا أن المؤمنين لا يمكن أن يتساهلوا فى عزتهم إلى هـذا الحد ، فاشتد حذرهم . وحشدوا من الروم ومتنصرى العرب قوة يستأصلون بها أمر محمد . ولما علم الرسول بذلك جهز جيشاً يضعف به من حدة الثائرين عليه ، الهازئين بدعوته ، وما كاد يصل ذلك الجيش إلى مقتل (رسوله) حتى وجد حشد الروم على قـدم واستعداد . فاشتبك الجيشان فى موقعة حامية ، استشهد فيها ثلاثة من أبطال المسلمين ولولا مكيدة حربية ألهم الله بها خالد بن الوليد ما نجا من الجيش أحد . ثم تتابعت الأخبار بأن الروم جمعـوا للمسلمين الجموع واعتزموا غزوهم .

فتجهز النبى صلى الله عليه وسلم ، وخرج بجيشه قبل أن يفاجئوه فى بلده ولما وصل إلى تبوك وجدهم قد عدلوا عن فكرتهم ، فأقام النبى هناك عدة أيام صالح فيها بعض الأمراء . ثم عاد إلى المدينة يفكر فى أمر هؤلاء الذين فاتهم النصر بمكيدة خالد بن الوليد ، وأنهم لا بد عائدون إلى القتال . فجهز جيشا تحت إمرة أسامة بن زيد ، ولم يكد يخرج هذا الجيش حتى قبض صلى الله عليه وسلم .

وتولى بعده أمر المسلمين أبو بكر الصديق فرأى أبو بكر أن الحزم والوفاء والحكمة تقضى بإنفاذ ذلك الجيش الذى أعده الرسـول صلى الله عليه وسلم رداً لغائلة هؤلاء المعتدين . وتوالت بعد ذلك

حروب المسلمين مع الروم حتى فتح المسلمون بلادهم . ومكنوا عباد الله من دين الله .

وكما تجلت الروح العدائية من الروم على هـذا الوجه تجلت أيضاً من الفرس ، والفرس أشد غطرسة وجبروتا من الروم . وكان ذلك حينما بعث الرسول كتابه إلى كسرى فمزقه ورمى به إلى الأرض عتوا واستكبارا وقد بلغ من كبرياء كسرى: أن أرسل لعامله باليمن أن يبعث إلى محمد برجلين جلدين يأتيان به . وفعلا توجها إلى الرسول وأخبراه بالمهمة التى جاءا من أجلها فقال الرسول : فى هذا اليوم : « قتل كسرى » ولما علم الرجلان صـدق الرسول أسلما ، وكان إسلامهما سبباً فى إسلام عامل اليمن . ثم انضمت إلى اليمن بلاد البحرين وعمـان وكانت كلها تحت حماية الفرس .

وهنا ظنت الفرس أن انتصار المسلمين على الروم لم يكن إلا لضعف الجيوش الرومانية . فشرعوا فى الإغارة على القبائل العربية المجاورة لهم واستغلوا ملوك الحيرة فى ذلك فأمعن هؤلاء فى الاعتداء على المسلمين ، وعندئذ سار إليهم جيش المسلمين ، ونشبت بينهم الحرب حتى فر معتمد الفرس إلى المدائن وبذلك خضع ملوك الحيرة للمسلمين وقد أشعل ذلك نار الحقد فى قلوب الفرس على المسلمين ، وتذكروا جبروتهم . وألفوا جيشاً لإخراج المسلمين من بلادهم . فدارت رحى حرب بينهم وبين المسلمين

زحف فى نهايتها المسلمون على بلاد الفرس وبذلك سقط عرش كسرى ودانت لأولياء الله جميع البلاد الفارسية .

* * *

من هذا العرض الوجيز يتبين أن المسلمين فى الصدر الأول ما كانوا يفاجئون قوما بحرب إلا بعد أن يظهر منهم روح العداء ومعارضة الدعوة والوقوف فى وجهها ، والتحقير من شأنها وأنهم كانوا متى تبين لهم ذلك الروح العدائى وأيقنوا بخطره عليهم وعلى الدعوة سارعوا إلى إخماده والقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره ويمتد شره . وما كانوا ينتظرون حتى يهاجمهم العدو فى بلادهم ، وذلك جريا على القاعدة الاجتماعية الفطرية : « ما حورب قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا » ومع هذا كان من تعاليمهم إذا وصلوا إلى أرض العدو الذى عرفوا عداءه أن يخيروه فى واحد من ثلاثة الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال ، وذلك رجاء أن يعود إلى نفسه ويراجع قلبه فينتزع منه بالحكمة روح العداء والمخاصمة . اقرأ إن شئت قوله عليه الصلاة والسلام ، من وصاياه لأمراء جيشه « إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى خصال ثلاث ، لتعلم أن روح العداء سابق على إنفاذ الجيش ، وأن التخيير لم يكن إلا بدافع الرجاء فى السلم والعدول عن روح العداء » .

وكما يتبين هذا من ذلك العرض يتبين أيضا أن الحروب التى قام بها المسلمون فى الصدر الأول لم تكن بقصد إكراه الناس على

الدين ولا بقصد تسخير الشعوب وإذلالها ، ولا بدافع الطمع فى المال وسعة الملك والسلطان .

وإنه ليجدر بالناس أن يرجعوا إلى تشريع القرآن فى معاملة من لا يدينون بالإسلام من أهل العهد والذمة كما يجدر بهم أن يقرءوا سيرة الخلفاء الراشدين والأمراء العادلين مع الذين لا يدينون بالإسلام ، وسيعلمون عن حجة وبينة ، لا عن ظن وتخمين — مقدار سماحة الإسلام فى معاملة رعاياه من غير المسلمين ومحبته للسلم العام ، والتضامن الإنسانى ، سيعلمون مبلغ السمو فى تشريعه الانسانى العام الذى جذب قلوب الناس إليه عن طوع واختيار ، والذى عاش فى كنفه غير المتدينين به قرونا متطاولة ، لا يشكون ضيما ، ولا يبخسون حقا [١] .

ولعل القارئ — بعد هذا — لا يخالجه شك فى أن القرآن والعمل النبوى متضامنان على تقرير نظرية القتال على الوجه الذى تضمنته هذه الرسالة . ونرجو من الله سبحانه أن يهيئنا للقيام بما يوجبه علينا الدين من التبليغ لأحكام الله وهدايته ، التى تكفل للمسلمين العزة والكرامة إنه سميع مجيب .

---

[١] لخصت هذه الخاتمة من محاضرة ألقيت بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة وطبعتها المطبعة السلفية سنه ١٣٥٢ هجرية .

مطبعـــة الأزهر

فهرس الكتاب

صفحة